مدام فوزية

بادارة شئون العاملين بالوزارة .. الموظفون والموظفـــات قابعون خلف مكاتبهم بين أكوام مكدسة من الأوراق و «الدوسيهات» .. والسعاة يروحون ويغـدون فى الطرقات .. حاملين مكاتبات أو نشرات .. أو بوستة .. أمام غرفة رئيسة قسم التسويات .. وقفت السكرتيرة تصلح من هندامها .. طرقت الباب الموارب .. فجاء صوتها جافا يأمر بالدخول .. دخلت سلوى قلقة الخطى وعلى شفتيها ابتسامة مزيفة .. فى أدب ألقت التحية .. نظرت مدام فوزية من زاويتى عينيها .. ثم عادت تنشـــغل فى أوراقها غير مكترثة .. وكانت قد لمحت مظروفا حكوميا .. تحمله سلوى فى حرص .. **اقتربت سـلوى من مكتبهـا بينما غمغمت الرئيسة : ممن هذا ؟**

ـ انه من سيادة المدير العام ..

رفعت مدام فوزية هامتها ·· تناولت المظروف ·· قلبته فى يدها وفى عينيها تساؤل ·· هـزت رأسـها مهمهمة بكلمات غير مسموعة ·· عندئذ هرولت سلوى ناحية الباب متحسسة الأرض بقدميها ·· عبثا حاولت المدام أن تحذر ما بالمظروف ··

سرت الرهبة فى كيانها :

ـ لابد انه شىء بالغ الأهمية ·

بيد مرتعشة التقطت سـكين فتح المظاريف ·· الرهبة فى قلبها طبول تدق ·· ألقت المظروف جانبا ·· فى السـماء مرت سحابة باهتة ·· تبعتها أخرى غامقة ·· لحقت بهما ثالثة قاتمة ·· فى المبنى المواجه قفزت قطة فاقعة السواد ·· نقلت بصرها بين المظـروف الملقى ·· البـاب المغلق ·· سحبت المظروف بيـد مرتجفة وقلب واجف ·· فتحته ·· التهمت السـطور بعينيهـا واحدا تلو الآخر ·· فجأة انقلبت سحنتها وامتقع لونها ·

ضغطت على فكيها تنتزع الكلمات :

ـ مستحيل ·· كيف ؟ ! ·· كيف ؟ ؟ !

« البرافان » أمامها تتأرجح بلا انتظـام ·· خبطت قدماها الأرض ·· قامت تتجول بخطوات سريعة ·· متوترة ·· الحجرة ضيقة ·· الجدران تميل نحوها ·· جرت الى النافذة تستنشق الهـواء ·· أطلت على الفنـاء الواسع ·· الموظفون يتقافزون ·· يترنحون كالسكارى ·· يتناطحون ·· ضجيجهم يصم أذنيها ·· المبانى الشاهقة تتمايل ·· ضغطت على رأسـها بكلتا يديها ·· تأوهت من أعماقها ·· أخرجت منديلها وجففت عرقها ·· أحست بالضعف يعتريها ·· زحفت قدماها حتى مقعدها ·· الصراع على أشده فى داخلها ··

وصوتها المحتج :

– رجل ! .. رجل بين سيدات وآنسات .. كيف ؟ ؟ : ازدرد وجهها وبرقت عيناها ..

خرج من فمها فحيحا :

– لو فى مقدورى أن أدق عنق المدير وأحطم رأسه الأصلع الكبير .. لم أختار رجلا .. ؟! .. لم أطلب موظفا جديدا .. القسم لا يحتاج وأنا .. أنا أدرى منه بقسمى !

أطلت فى مخيلتها صورة المدير العام بأجزاء جسمه التى تضخمت جميعا .. رن فى أذنها صراخ حاد وزعيق ورغى .. شحب لونها .

– ان المدير رجل .. رجل فظ .. قوى الشخصية .. سأناقشه بهدوء .. ولكن .. ماذا أقول له ؟ ..

قامت مترددة مبعثرة الأفكار .. خرجت من حجرتها .. مشت فى الطرقة .. تزداد نبضات قلبها كلما اقتربت من حجرة المدير .. وقفت أمام الباب المغلق .. الباب مارد استطال وكبر حجمه .. سد ضخم يتحدى ضعفها .. صخرة يستحيل نبشها .. شعرت بالوهن يتملك جسدها .. والهوان يملأ نفسها .. والأرض تميد من تحتها .. لم تملك الا أن تتراجع الى غرفتها الصغيرة .. فهى تناسب حجمها .. ولم تلتفت الى الباب السد الذى يتربع خلفه المدير العام .. لاح أمامها المظروف « الكاكى » اللون .

– لعل هذا الرجل الموظف يهم المدير شخصيا .. أو .. أو يكون من قبل الوزير رأسا .

كان هذا الخاطر بمثابة الماء البارد .. أشفى بعض غليلها .. كما عدته ذريعة لعودتها .. جلست فى غرفتها تبتلع هزيمتها المرة

وتنعى حظها .. كما دفنت ثورتها فى أعماقها .. وأكدت لنفسها أن هناك أمورا يجب أن تتقبلها بمشيئتها أو بدونها .. حتى ولو كانت غصة .. فعليها أن تزدردها ..

فشلت رئيسة القسم أن تواصل عملها .. شعرت بالاختناق يضغط على عنقها وصدرها .. يا لسوء طالع هذا اليوم .. لو ركنت فى البيت .. ولكن الى متى ؟ .. نهضت وخرجت من حجـــرتها جاهدة أن تكون رابطة الجأش .. وكانت قد برقت فى ذهنها فكرة ثعلبية .. واصلت سيرها بحيوية لا تتفق وموقفها .. وقفت على باب قسمها .. الموظفات وأحاديثهم التى لا تنقطع عن أخبـــار « المـودة » ووسائل الاحتفاظ بالأزواج .. وأحابيل الشغالات ومقالب المخدمين .. بعضهن انهمكن فى أعمال الخيط و « التريكو » حتى لا يضيعن الوقت فى مثل هذه الأحاديث .. والباقون اندمجن فى قراءة المجلات تحاشيا للملل .. خطت مدام فوزية بخطواتها الوئيدة ومن منهن لا تعرف وقع هذه الخطوات .. كان فزعهن .. تركت كل ما بيدها .. سكتن عن الأحاديث المطولة المهلهلة وانبرت الأصابع تعبث فى الدفاتر وتفتش عن الأقلام .. عيونهن المذعورة تسترق النظر من زواياها الى وجه الرئيسة .. التفتت الرئيسة ناحية الباب .. رجعت تغلقه بنفسها .. وهنا توجس الجميع شرا محققا .. فلن يسلمن من عبارات التهكم والتأنيب .. اندهشن جميعـا حين ابتسمت .. عيناها تجـوس فى ملامحهن من خلف عويناتها لعلها تستشف كيفية وقع حديثها .. أو كيفية استقبالهن للموظف الجديد .. جلست على مقدمة أحـــد المكاتب .. تصرف غريب .. وقفن جميعا احتراما ولم يخف على بعضهن ما ارتسمت على سحنتها من خطوط الأسى .. اجتمعن حولها واحدة بعد الأخرى .. ضغطت على نظـارتها خيفـة أن تنحرف فيفتضـح ما يعتلج فى صدرها .. حركت لسانها فى فمها .. **خرج صوتها غير مألوف :**

ـ أما عرفتن الخبر الجديد ؟

ركزن عيونهن على شـــفتيها ·· طالت فترة الصمت ··

تشجعت احداهن قائلة :

ـ لعله خبر سعيد ·

ـ لا ·· لا أعتقد ··

سقطت هاتان الكلمتان من فمها وعاد الصمت يرمى شباكه·· الصمت شيء واحد ·· الشكوك كثيرة متباينة ·

تدحرجت الكلمات من بين شفتيها ثقيلة :

ـ انتهى عهد الحرية يا صديقاتى ·

صديقاتى ؟! تعبير جديد أودع ريبة فى وجوه الموظفـــات

وأضافت :

ـ من الغد عليكن بارتداء ملابس أكثر احتشام ووقار ··

التبس الأمر عليهن ·· لم تجرؤ احداهن على الاستفسار ·· كل تعتقد أن ملابسها غاية فى الاحتشام ··

ثم أردفت مدام فوزية :

ـ وليكن حديثكن فى محيط العمل ·· العمل فقط ·

كلام غامض أثار دهشتهن·· لم تطق احداهن الصبر فاندفعت قائلة :

ـ ما الخبر يا مدام ؟ !

سكتت مدام فوزية عن قصد ·· ثم ألقت قنبلتها :

ـ موظف جديد ·

قالت واحدة متلعثمة :

ـ تقصدين موظفة جديدة يا مدام ..

سرت الرئيسة من طريقة عرضها لنقطة البداية .. ثم اصطنعت الانفعال وقالت ضاغطة على الحروف :

ـ كلامى واضح .. أقول موظف جديد .. وليست موظفة .. يعنى رجل ..

ثم أضافت فى حزن مقصود :

ـ سيعمل بينكن رجل .. تصوروا ؟!

تبدلت الملامح واحتدت الانفعالات .. تجددت الأشواق وارتعشت الأطراف .. لمعت عيون وتعلقت أخرى بأحبال الأمل .. تخضبت خدود بحمرة قانية .. ومن بين هذه الانفعالات .. التقى زوجان من العيون ..

كل يقول للآخر :

ـ هذا دورى ..

سرحن بخيالهن فى ذلك الموظف.. أهو أعزب.. أم متزوج ؟ .. شاب .. أم عجوز جارت على عمره السنين .. طويل أم قصير .. نحيف أم ربعة .. أسمر أم أشقر .. ومتى يصل .. غدا أو بعد غد .. أول الشهر .. متى .. متى ؟ ؟

الأجساد فى الحجرة الكبيرة .. الخيالات تحلق بعيدا . . على مضض انتظرت الرئيسة لحظة الثورة .. طال الانتظار .. كانت تتوقع أن يزمجرن محتجين أن يعمل بينهن رجل .. وبهذا تستطيع أن تتحدث عنهن فيتحقق أملها فى ابعاد ذلك الرجل عن مملكتها النسائية .. ثار الدم فى عروقها .. كادت أن تفقد رشدها

وتقذعهن بالسباب ·· **ولكنها عادت تقذف بسهمها الأخير فى لوعة:**

ـ ما رأيكن ؟

لم تجب واحدة ·· كأنهن نيام ·· أو أنها توجه سؤالها الى نفسها ·· وكانت صدمتها حين تحطمت فكرتها ·· شعرت بالتمزق ·· خنقت عبرة كادت أن تنزلق من مآقيها ·· انسلخت تاركة الموظفات يرغين ولسان حالها **يقول متمنيا :**

ـ لو كنت رجلا !

فى الصباح جاء الموظف الجديد تتقدمه الرئيسة لشىء فى نفسها ·· وقد احتشدت فى صدرها أمر الصراعات ·· دخلا القسم ·· أخذت الدهشة الموظف حين وجد نفسه فى مملكة النساء وعلى رأسهن ملكة ·· تسابقت العيون تتفحصه ·· كان شابا أسمر اللون طويل القامة ممشوقا ·· تجسدت الرجولة فى ملامحه ونظراته ··وابتسامته الرزينة ·· ورنات صوته الخشن حين ألقى بالتحية ·· لم تحظ مدام فوزية بأدنى اهتمام ·· نسى الجميع وجودها·· استطاعت أن تقرأ تعبيراتهن بوضوح·· وأيضا آراءهن وأحاسيسهن ·· شعرت بالغربة فى قسمها التى قضت بين مكاتبه ووظائفه أحلى أيام عمرها ·· كم زاد حقدها على الموظف ·· وبالذات حين رأته يتحدث بلباقة استحوذت على انتباههن ·· كأنه بطل مسرحية أمام جمهور عاشق ·· ترجمت كل هذا اغاظة لها ·· أو أنها وقيعة دبرت لها ·· تأكدت أنه ممثل بارع استطاع أن يتقن دوره ·· وغدا سيسقط القناع ويكتشف أمره ·· ساعتها تسدد ضربتها وتستعيد كرامتها ·· دارت رأسها ·· وانتشر النمل فى جسدها واصفرت الدنيا فى عينيها ·· **وكم رغبت أن تصرخ زاعقة :**

ـ أنسيتم وجودى ·· اننى رئيستكم جميعا ·· ورئيسة هذا الرجل ·· هذا الضيف الثقيل ··

وكم شعرت بالغيظ حين رأته فى اللحظات الأولى يسأل عن مكتبه وماهية عمله ·· وسرعان ما اندمج يباشره ···

انسلت مدام فوزية قبل أن تفقد ما تبقى من أعصـــابها وتتصرف بما لا يليق ومكانتها ·

لم تمض أيام كثيرة حتى أنجز الموظف كل عمله ومتعلقاته ·· ثم انبرى يساعد زميلاته بسعادة وتواضع وبدا القسم خلية نحل·· دائبة العمل والنشاط ·· ولم ينقض أسبوعان حتى أنجزت كل الأعمـال المتراكمة ·· واختفت « الدوسـيهات » من على مكاتب الموظفـــات ·

طيلة هذه الأيام ورئيسة القسم لا تفارق مكتبها ·· تكبت فى صدرها ثورة عارمة لا تستطيع تفجيرها ·· فالثـــورة تعوزها ارادة حديدية ·· وعزم أكيد ·· لم تزر قسمها مرة واحدة ·· وكل يوم يمر يضيف ألما الى ألم ·· ولوعة الى لوعة ·· وكذا يحطم جانبا كبيرا من شخصيتها ومعنوياتها ·

فى هذا اليـــوم فاضت آلامها وعيل صبرها ·· لم تحتمل صورة الموظف التى علقت بمخيلتها ·· بابتسامته الواثقة ورجولته ·· رثت لشخصيتها التى بليت ·· واحترقت ·· وللمرة الثانية تمنت من أعماقها لو خلقها الله رجلا ·· غشى وجهها عرق بارد ·· ماجت الأشياء أمامها ·· الضحكات الساخرة تقرقع فى أذنيها ·· توقفت عيناها على السحب المتراكمة ·· اسودت الدنيا من حولها ·· شدت الدرج بعصبية ·· أخرجت ورقة كبيرة ·· واسترسلت تسطر استقالتها ولسان حالها يردد : اما أنا ·· أو هذا الموظف ··

الرجل .. الدموع تسـح من عينيها .. أتى الى سمعها طرقات خفيفة .. ما زالت أصـابعها المتشنجة تكتب وتكتب .. علت الطرقات واستمرت فى الحاح .. توقفت عن الكتابة . .انتابتها حـيرة .. فهل تأمر الطارق بأن يغرب عن وجهها .. أو تدخـل ورقتها لتعرف ما وراءه .. طالت فترة التفكير العقيم .. والطارق مصر لعله أراد أن ينقذها من حيرتها .. ارتفع صـوتها تأمره بالانتظار .. مسحت دموعهـا وأدخلت الورقة فى درج مكتبها ثـم أمرته بالدخول .

دخلت سلوى .. أيضا تحمل مظروفا أصفر .. انقلبت الدنيا أمام مدام فوزية .. واشـتد وجيب قلبها وتلاحقت أنفاسـها .. أوشكت أن تطردها وتعفيها من هذا العمل .. وانبعث صياحها :

ـ مظاريف كل يوم .. كل يوم .. ممن هذا أيضا ؟

ثبتت سلوى قدميها خوفا أن ينطلقا هاربين رغما عنها .. تذكرت أنها لم تقدم اليها رسالة أخرى منذ تعيين الموظف الجديد .. **ثم همست في رهبة :**

ـ انه من .. وكيل الوزارة .

وقع قلب الرئيسة .. استقرت نظراتها المذعورة على ثوب سـلوى تتأمـل خطوطه المتشابكة .. اغتصبت ابتسامة ثم قالت فى ضعف :

ـ اجلسى يا ابنتى ..

عجبت سلوى من هذا التغيير المفاجىء .. واشتد عجبها حين سمعتها تقول :

ـ اعذرينى يا سلوى .. فان برأسى دوار شديد .. أرنى هذا الخطاب .

ناولتها سلوى الخطاب وما زالت الدهشة فى عينيها الفاغرتين .. أمسكت مدام فوزية المظروف .. شعرت بغشيان وشىء مجهول يسلبها ارادتها .. **ثم أضافت فى اعياء :**

ـ أشكرك يا بنتى .

هرولت سلوى من غرفة رئيستها لا تستطيع أن تستوعب ما حدث .. ودعت مدام فوزية تتفرس فى الخطاب وبودها ألا تفتحه قبل أن تنتهى من تسطير الاستقالة .. الا أنها عدلت عن ذلك خشية أن يكون بالمظروف أمرا لا يحتمل التأجيل .. وضعت راحتها على صدرها .. تماسكت ثم فتحت المظروف .. ويا للعجب ! .. لقد تبدلت سحنتها وانفرجت أساريرها بعد قراءة سطر واحد .. ابتسمت .. قامت تجرى هنا وهناك والرسالة فى يدها .. وقفت تكمل سطورها الباقية .. جرت الى النافذة .. الموظفون فى الفناء لا يترنحون كالسكارى .. تراهم فرقة موسيقية تعزف لحن السعادة .. السماء صافية .. كل الدنيا تضحك .. وتهلل .. وتغنى ..

ـ خطاب شكر من وكيل الوزارة .. ومكافأة أيضا ..

تأملت وجهها فى مرآة حقيبتها .. ولا شعرة بيضاء فى رأسها .. اختفت تجاعيد وجهها .. ترى وجه الموظف الجديد .. ابتسامته تزداد وداعة .. **خرج صوتها هامسا حالما :**

ـ كل شىء يتغير .

جرت الى مكتبها لتضع الخطاب السعيد .. ملأت عينيها برؤيته .. ما زالت تنظر اليه فى شوق كأنه حبيب عاد .. وسام تمنت لو تعلقه على صدرها وتطوف به طرقات الوزارة ومكاتبها .. قبل أن تغلق الدرج لمحت الاستقالة .. اختطفتها وأسرعت تمزقها

بين دموعها ·· أغلقت الدرج على مبعث فرحتها ·· لم تطق الصبر ·· انطلقت من حجرتها ·· مشت فى الطرقة ·· بل حلقت ·· دخلت قسمها تعانق الموظفات بعينيها وروحها ·· أمـام الرجـل وقفت ·· الابتسامة المشرقة ما زالت تضىء وجهه·· نفس الابتسامة ·· نفس الرجـولة ·· **طالت النظـرة بينهما ·· ولسان حالها** يؤكد :

ـ هذا هو الانسان ·

تمنت لو تطبع قبلة على جبهته ·· الابتسامات زهور تطير فى جنبات الحجرة ·· فعلا كل شىء تغير منذ قدوم الموظف الجديد ·· الرجـــل ·